## أولاً
## المنهج بشكل عام

قبل الوقوف على رأي الطباطبائي حول المنهج وعلاقته بالمعرفة الإنسانية وتنظيمها وبالتالي تطويرها، وقبل الولوج في دراسة أنواع المناهج المختلفة التي اعتمدها في مختلف الميادين والعلوم التي اشتغل عليها، لا بدّ من توطئة تسلط الضوء على المنهج كعلم قائم بذاته ودوره في تنظيم وتطوير المعرفة بشكلٍ عام؛ وبموازاة ذلك هنالك نقطة أساسية لا بدّ من الإشارة إليها منعاً للإلتباس، وهي الفرق بين المنهجية والمنهج.

فالمنهجية مصطلح تمّ استخدامه في الدراسات العليا خاصةً بمعنى العلم الذي يُبيّن كيف يجب أن يقوم الباحث ببحثه، أو هي الطريقة التي يجب أن يسلكها الباحث منذ عزمه على البحث وتحديد موضوع بحثه حتى الإنتهاء منه، أو لنقل هي مجموعة من الإرشادات والوسائل والتقنيّات التي تساعده في بحثه. والغرض من المنهجية، تعريف الطالب على تقنيات البحث العلمي، وتنمية الروح العلمية فيه، وتسهيل مهمته في البحث، وتجنيبه ضياع أتعابه هدراً.

وموضوعها معايير البحث والباحث، واختيار الأستاذ المشرف، والتقميش، وكيفية كتابة البحث، وكتابة الحواشي، ووضع الفهارس

وغيرها من أمور[١]، وهذا ما يدلّ على تمايزها[٢] عن المنهج الذي سنستعرضه في سياق هذا البحث بمعناه الإصطلاحي، أي «الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة التي تهيمن على سير العقل وتحديد عملياته، حتى يصل إلى نتيجة معلومة»[٣].

## ١ - حول علم المناهج:

يمثل منهج البحث في أي علم من العلوم، ظاهرة حضارية تتحدّد ملامحها وتتميز خصائصها وفق طبيعة المنهج وما ينطوي عليه من مواصفات علمية أو غير علمية، ومن هنا، تبرز مظاهر البحث وتتبين ثمراته استناداً إلى معطيات المنهج وما يمكن أن يُسهم فيه من إبراز لتلك المظاهر والنتائج، وبذلك تقوّم طبيعة المرحلة الفكرية لأية أمة من الأمم، ويتبيّن مدى إسهامها في إثراء المعرفة الإنسانية عبر تاريخها.

ولقد أصبح بالإمكان تمييز الدور العلمي لأية مرحلة فكرية وتشخيص أبعادها ومعرفة أثرها في تطور المعرفة العلمية، استناداً إلى

(١) يعقوب، إميل، كيف تكتب بحثاً؟ أو منهجية البحث، دار جروس برس، طرابلس، ط١، ت١٩٨٦م، ص٩.

(٢) إن فهم هذا التمايز ضروري حتى لا نقع في محذور الخلط بين المصطلحين (المنهج - المنهجية)، وذلك كما حصل مع الدكتور علي جواد الطاهر في كتابه (منهج البحث الأدبي) حيث عدّ (المنهج) واستخدمه بمعنى المنهجية. للتوسع حول هذا الأمر راجع: كيف تكتب بحثاً؟ أو منهجية البحث، م.ن، ص١٠.

(٣) وحيد دويدري، رجاء، البحث العلمي، دار الفكر، دمشق، ط٤، ت٢٠٠٨، ص١٢٧ - ١٣٠.

طبيعة المنهج الذي اعتمد في هذه المرحلة أو تلك، الأمر الذي يؤدي إلى إظهار النتائج العلمية وهي موضوع الحكم على طبيعة أي مرحلة.

من هنا، ارتبط تقدّم البحث العلمي وتحصيل المعرفة العلمية بضرورة وجود منهج للبحث والتحصيل، فإن غاب المنهج خضع البحث للعشوائية وأضحت المعرفة غير علميّة، وهذا ما عُبّر عنه بالنكسة «فما انتكست مسيرة البحث العلمي إلا بسبب النقص في تطبيق المناهج العلمية، أو لتخلف أدوات تلك المناهج عن قياس الظاهرة موضوع البحث»(١)، كما «أن المعرفة الواعية بمناهج البحث العلمي تمكن العلماء من إتقان البحث وتلافي كثير من الخطوات المتعثرة أو التي لا تفيد شيئاً»(٢).

والعلم الباحث في المنهج يسمى بعلم المناهج، وهذا لفظ يشمل كل العلوم، وتبعاً لاختلاف العلوم تختلف المناهج، ولكنها يمكن أن ترد إلى منهجين هما: الإستدلال والتجريب، يضاف إليهما منهج ثالث خاص بالعلوم الأخلاقية أو التاريخية وهو منهج الإسترداد.

والعلم الباحث في هذه المناهج الثلاثة خصوصاً يسمى علم المناهج؛ فهو الباحث في الطرق المستخدمة في العلوم للوصول إلى الحقيقة، وكلمة Methodologie ترجع خصوصاً إلى (كَنت)، فقد قسّم المنطق إلى قسمين: مذهب المبادئ، وموضوعه شروط المعرفة الصحيحة، وعلم المناهج الذي يمثّل الشكل العام لكل علم، والطريق

(١) محمد قاسم، محمد، المدخل إلى مناهج البحث العلمي، دار النهضة العربية، بيروت، ط١، ت١٩٩٩، ص٥١.

(٢) م.ن، ص٥١، نقلاً عن عبد الرحمن بدوي: مناهج البحث العلمي، ص٧.

التي بها تكوّن أي علم كان، وإلى جانب علم المناهج العام هذا، توجد علوم مناهج جزئية تختلف تبعاً للعلوم»[١].

## ٢ – علاقة المنهج بالمعرفة:

لما كان المنهج كما رأينا هو البرنامج الذي يحدِّد لنا السبيل للوصول إلى الحقيقة، أو الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم، وبالتالي «إن تقدّم البحث العلمي رهين بالمنهج، يدور معه وجوداً وعدماً، خصباً وعقماً»[٢]، فيكون «منهج البحث العلمي كثمرة للتقابل والإتصال بين ذات مُدركَة (أساس إبستمولوجي)، وموضوع مُدرِك (أساس أنطولوجي) في إطار تسويغات تتسم بالضرورة (أساس منطقي).

أما منهج البحث العلمي، فإنه يستند بالضرورة إلى مبدأ المعقولية في الوجود والمعرفة، فالعلم ليس إلاّ تمثيل مجرد للواقع، ومن ثم فهو معرفة تقتضي ذاتاً لتعرف، والعالم هو موضوع هذه المعرفة، ومن ثمّ فلا بدّ لقيام علم المناهج من أن يستند إلى أسس وجودية ومعرفية ومنطقية»[٣].

وبعبارةٍ أخرى، إن البحث عن أسس معارفنا، أو بالأحرى مناهجنا

(١) بدوي، عبد الرحمن، مناهج البحث العلمي، مركز عبد الرحمن بدوي للإبداع، مصر، لا.ط، لا.ت، ص٧.

(٢) بالرايس، هشام، مدخل لدراسة منهج البحث العلمي عند علماء المسلمين، الجمعية الدولية للمترجمين واللغويين العرب.

(٣) المدخل إلى مناهج البحث العلمي، م.م، ص٧٨.

في البحث، أمر يعود إلى تلك المحاولات الأولى التي قام بها الإنسان بصدد تفسير وتبرير الإعتقاد بهذا العالم، ولم تأخذ تلك المحاولات طابعاً فلسفياً منظّماً إلاّ عند الإغريق عندما بدأوا في البحث عن أصل العالم.

وفي مرحلة أكثر تطوراً، بدأ الفلاسفة يبحثون العلاقة بين وجودهم ووجود هذا العالم وما ينشأ عن تلك العلاقة من قضايا معرفية، «ولما كان الإدراك الحسي لم يعد كافياً لتسويغ معتقداتنا، فإن الإستدلال الذي يشكل أحد أهم المناهج في المعرفة العلمية؛ لا بدّ له من أن ينطلق من أسس راسخة ثابتة نحو تبرير وتسويغ ما نعتقد به»[١].

لذا كان المنهج معيناً في إنتاج المعرفة القائمة على أسس عقلية خالصة تضمن سداد التفكير ونقاءه من الميل والهوى، «إذ بالبحث نتعلم وبالعلم نتعرف، أي أن البحث هو وسيلة الإثراء العلمي، وإن العلم هو وسيلة الإثراء المعرفي، وهكذا لولا البحث ما تعلمنا، ولولا العلم ما عرفنا»[٢].

(١) المدخل إلى مناهج البحث العلمي، م.م، ص١٠٤.

(٢) حسين عقيل، حسين، فلسفة مناهج البحث العلمي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ت١٩٩٩، ص٢٢.

## ثانياً
## المنهج عند الطباطبائي

إن الحديث عن المنهج عند العلامة الطباطبائي، يحتاج في البداية إلى فهم وتشخيص طبيعة الموضوعات التي اشتغل عليها وأسلوبه في معالجتها، للحصول على معنى واضح للمنهج الذي اعتمده العلاّمة في صوغ فلسفته ومنهجه العلمي.

إذ أن الكاتب في أسلوبه، يحتاج فضلاً عن العنصر اللفظي، إلى شيءٍ من العمق والشمول، ليكون أكثر انطباقاً لما يجب أن يؤديه هذا اللفظ من معنى صحيح يخدم الهدف الذي يريده الكاتب، «فالأسلوب إذن هو معان مرتبة قبل أن يكون ألفاظاً متّسقة، وهو يتكوّن في العقل قبل أن ينطق به اللسان أو يجري به القلم، كما أن كلمة أسلوب صارت اليوم حقاً مشتركاً بين البيئات المختلفة يستعملها العلماء ليدلوا بها على منهج من مناهج البحث العلمي، . . . فالعقل الإنساني لا يستطيع أن يفكر أو يستدل على حقيقة ما دون منهج يقوم عليه الفكر»[١].

وللوهلة الأولى، قد يبدو الأمر سهلاً عند محاولة دراسة المنهج عند أحد العلماء الذين اشتغلوا وتخصصوا في جانب محدد من التخصصات العلمية، إلاّ أن الأمر يختلف ويصبح صعباً عند دراسة

(١) فضل الله، هادي، السيد محسن الأمين المناحي الفكرية والمواقف الإصلاحية، دار البلاغة، بيروت، ط١، ت.١٩٩٣، ص٧٩.

شخصية اتّسمت بالشمولية العلمية، إذ يستدعي الأمر الإحاطة بكافة الجوانب الفكرية والعلمية التي اشتغل عليها، وملاحظة المنهجية المتبعة في تلك الأعمال.

فالعلاّمة الطباطبائي كان أمة لوحده على حدّ تعبير السبحاني حيث قال فيه: «إن الشخصيات العالمية الكبيرة، مع أن كل منها هو فرد من أفراد المجتمع، ولكن بالنظر للأعمال التي تقوم بها في الحياة، والآثار التي تخلّفها، تعتبر أمماً.. والعلاّمة الطباطبائي، أمّة لوحده، نظراً للخدمات القيّمة والآثار العظيمة التي تركها، وبعبارة أخرى، أنه يُعدّ فرداً من زاوية النظرة الظاهرية، ولكنه من حيث الأعمال التي حصلت كان في عداد الأمم، وفقدانه، كان فقدان أمة وليس فرد»[١].

إذن، دراسة منهجية عمل شخصية كهذه يحتاج إلى جهد استثنائي من خلال استقراء كافة الأعمال والمجالات التي اشتغل عليها وخاض غمارها، وهذا ما حاولنا القيام به على قدر المستطاع والتوفيق، ولا ندّعي الإحاطة الكاملة بهذا الشأن، لكن يكفي أن نقول بشكلٍ عام، أنّ العلامة الطباطبائي كان ينتهج منهجاً واضحاً في كافة أعماله وآثاره، ومحاضراته، ودروسه، وحتى في مناقشاته العلمية اليومية حول بعض الإستفتاءات أو بعض الأسئلة.

وكان هذا المنهج الواضح عبارة عن الفصل المنهجي بين العلوم، وهذا ما سوف يتّضح معنا في سياق البحث، ليس هذا فحسب، بل كان يدعو طلابه إلى الإقتداء به في هذا الأمر، ويوجّههم ويدعوهم إلى العمل وفق هذه القاعدة التي تثري العقل وتوجهه نحو إنتاج أفكارٍ مبدعة بعيدة عن النقد.

---

(١) مقالة شمولية العلامة الطباطبائي، م.م، ص٢٩٧ - ٢٩٨.

## أ – أهمية المنهج والفصل المنهجي عند الطباطبائي:

في مجموع أعمال الطباطبائي من مؤلفاتٍ ودروس تبلورت أصول منهجية واضحة، جرى ضبط وتدوين مسائلها في إطار تلك الأعمال، وعمل على تجسيد تلك المنهجية كمعيار وأساس لا يحيد عنها في أبحاثه كافة؛ وبوسعنا القول أن النتائج التي انتهى إليها في آثاره، تعد ثمرة لتلك الأسس التي تحرك عبرها تفكيره، وهذا لا يعني وجود الأسس كمعطى ناجز قبل عملية البحث، وإنما يعني أنها كانت تتوالد على الدوام في فضاء عملية البحث، لأن الإطار المنهجي يتشكل باستمرار مع تطور عملية البحث وامتدادها أفقياً وعامودياً بامتداد الموضوع.

وسنستعرض هذا الأمر بشيء من التفصيل عند حديثنا عن النماذج في المنهجيات التي اعتمدها في المسائل المختلفة، إلاّ أننا سنشير بشيء من الإيجاز إلى أبرز هذه الأسس، بما يتلاءم مع عنوان الموضوع الذي ندرسه في هذه الفقرة.

يقول العلاّمة محمد الحسين الطهراني، وهو أحد تلامذة العلامة الطباطبائي بهذا الخصوص: «كان الأستاذ مفكراً عميقاً، لم يكن ليمر على المطالب العلمية بسهولة، فإذا لم يصل إلى عمق المطلب ويكشف جميع جوانبه لم يكن يرفع عنه أبداً، وفي العديد من المرات كان يُسأل سؤالاً بسيطاً في مسألة فلسفية أو تفسيرية أو روائية بحيث يمكن الإجابة عنها بعدة كلمات مباشرة وينهي الموضوع، كان يسكت ويتأمل ملياً ثم يبدأ بتقديم الإحتمالات وعرض جوانب القضية وما قيل، فيكون ذلك عبارة عن درسٍ تعليمي.

لم يكن ليخرج عن دائرة البرهان في الأبحاث الفلسفية وكان يفصل

جيداً بين المغالطة والجدل، والخطابة والشعر. ولم يخلط أبداً بين المسائل الفلسفية والمسائل الشهودية والعرفانية والذوقية، ولا يُدخل أية مسألة شهودية حين التدريس في المسائل الفلسفية، ... وكان يودّ كثيراً أن ينحصر البحث في كل فرع من العلوم حول مسائل ذلك العلم وعن موضوعاته وأحكامه، دون الخلط بين العلوم، وكان ينزعج كثيراً من الذين يمزجون الفلسفة بالتفسير والأخبار، فإذا لم ينجحوا في البرهان وعجزوا عن الخروج من المسألة، اعتمدوا على الروايات والتفسير في محاولة لإتمام برهانهم»[١].

وكان ينقل لتلاميذه أهمية الفصل المنهجي بين العلوم في العديد من المناسبات، إن لجهة أسلوبه في الشرح والتدريس، أو لجهة الثناء والتنويه بمن يعتمد هذا الأسلوب، كما كان يفعل عند ذكره للملا محسن الفيض القاساني، حيث كان يقول عنه: «إنه رجل جامع للعلوم، أو يندر أن نجد مثيلاً له في الجامعية داخل العالم الإسلامي، مع ملاحظة أنه كان يرد في كل علم بصورة مستقلة ولا يخلط بين أي واحدٍ منها»[٢].

ولأهمية هذا الأمر - أي الفصل المنهجي بين العلوم - كان العلامة الطباطبائي يعتبر ابن سينا أقوى من صدر الدين الشيرازي في فن الإستدلال والبرهان الفلسفي.

ويتجلى هذا الأمر بشكلٍ واضح عند حديثه عن الولاية في كتابه (نظرية السياسة والحكم).

---

(١) الشمس الساطعة، م.م، ص٤٠.

(٢) الشمس الساطعة، م.م، ص٤٠ - ٤١.

وبناءً على ما تقدّم، نجد أن هذا الإصرار على القول بضرورة الفصل المنهجي بين العلوم قد ترجمها الطباطبائي عملياً في جملة آثاره التي تركها، والتي تناولت شتى ميادين المعرفة والعلوم والتي سنتطرق إليها في سياق البحث.

## ٢ – دور المنهج في تنظيم وتقويم المعرفة:

يرى العلاّمة الطباطبائي أن الأهمية في اتباع منهجية (الفصل المنهجي بين العلوم) ليست ذاتية بقدر ما أنها تشكّل طريق واضح نحو إنتاج معرفة سليمة ومتينة، وبالتالي المنهج المحدد الخاص بعلمٍ ما إذا ما طبق واتّبع بشكل دقيق، فلا بدّ والحال هذه من أن تكونً الثمرة العلمية الناتجة عن هذا البحث بهذه الآلية عصية على النقد وذات صدقية وحجّية عالية، وهذا ما حدى به إلى الطلب من تلامذته بشكلٍ خاص وطلاب الحوزة العلمية بشكلٍ عام إلى السعي لتحصيل العلوم العقلية قبل الشروع في تحصيل العلوم النقلية، لأنه لا بد من تحصيل ما من شأنه تقوية الحس النقدي المنهجي والمنطقي، حتى يستطيع الطالب لاحقاً من تمييز ما هو صحيح ومنطقي من عدمه.

وعلم المنطق ودراسة الفلسفة أساسيان بنظره قبل دراسة العلوم العقائدية والكلامية، لأنه يعتبر أن لسان معظم الروايات الخاصة بالعقائد أو الكلام بعض الألفاظ أو المضامين التي لا يمكن فهمها إلا من خلال الإستيعاب المسبق لعلوم المنطق والفلسفة، وما التشويش الحاصل في بعض المسائل العقائدية إلا نتيجة لعدم اتباع منهجية محددة وفق الضوابط المنطقية والفلسفية، وبذلك يعتبر العلامة الطباطبائي من

العلماء الذين يقدمون العقل على النقل، ولكن ليس أي عقل، بل العقل المصقول بفن المنطق والفلسفة.

وكان يعتقد ويصرّح: «بأنّ العلامة المجلسي ومحي آثار وروايات الأئمة عليهم السلام، وأنّ مقامه العلمي، وسعة اطلاعه، وطول باعه تستحق التقدير، . . . ولكنه مع اجتهاده وبصيرته في فن الروايات والأحاديث، لم يكن مطّلعاً على المسائل الفلسفية العميقة، ولهذا وقع في العديد من الإشتباهات في بعض البيانات التي قدّمها. . .»[١].

ومردّ هذا الاشتباه برأي الطباطبائي: «أن حجّية الروايات بالنسبة لنا قائمة بواسطة البرهان العقلي، وسيكون الرجوع إلى الأخبار والتعبد بها وإسقاط الأدلة العقلية موجباً للتناقض والخلف، وهو محال، وبعبارة أخرى؛ فإنّ الأخبار الواردة ليس لها حجّية قبل الرجوع إلى العقل وترتيب القياس، أمّا بعد الرجوع للعقل، فلا فرق بين هذا القياس وسائر الأدلة العقلية، وسيكون الإلتزام آنذاك بمفاد الأخبار ونفي الأدلة العقلية موجباً للتناقض ولإبطال المقدمة بالنتيجة المستحصلة منها»[٢].

إذن، كل هذا الاهتمام بالمنهج القائم على أساس منطقي سليم هدفه برأي الطباطبائي تصويب وصقل وإرشاد العقل في سبيل إنتاج معرفة قويمة بعيدة كل البعد عن النقد وذات حجّية عقلية شرعيّة.

(١) الشمس الساطعة، م.م، ص٥٢.
(٢) م.ن، ص٥٠.

## ثالثاً
## نماذج عن المنهجيات التي اعتمدها الطباطبائي

ما ذكر من أدلة وتقدّم من براهين، يأخذنا إلى القول بأنّ العلامة الطباطبائي يدعو إلى الفصل المنهجي بين العلوم المختلفة، وأن هذا الفصل يساعد في إنتاج المعرفة المنبثقة من أساس عقلي ومنطقي، وأن الخلط بين هذه المنهجيات يؤدي إلى عشوائية وعدم إنتاج مسائل معرفية يقينية، وبما أن العلامة الطباطبائي قد خاض غمار العديد من الميادين العلمية حتّى اتّصف بالشمولية العلمية، وإن كان قد برز في بعض الميادين أكثر من غيرها، إلا أننا سنعمد في الآتي من كلام إلى محاولة تتبع وتلمّس آثار المنهج الذي اعتمده في جملة العلوم التي اشتغل عليها، لإظهار مدى تطابق المدعى مع الفعل والواقع.

### ١ – في التفسير:

تنزّل القرآن الكريم على قلب النبي ﷺ طوال ثلاث وعشرين عاماً، وكان المسلمون يرجعون إلى النبي ﷺ للإستفسار عن بعض ما أشكل عليهم، ومن بعده ﷺ كانوا يرجعون إلى أهل البيت عليهم السلام والصحابة(رض) والتابعين من العلماء، وهكذا وصولاً إلى نشوء علم التفسير الذي أصبح فيما بعد علماً قائماً بذاته.

ويعبّر عن التفسير لغة: «بأنه الكشف والإظهار، وفي الإصطلاح بأنه بيان معنى الآية وشأنها، وظروفها بلفظٍ يدل عليه دلالة ظاهرة، فالنظر في القرآن الكريم من حيث كونه كلاماً له دلالة ومعنى، ولله تعالى فيه هدف وقصد، ومن أجل بيان هذه الدلالة، وشرح المعنى، وإيضاح القصد، والإفصاح عن الهدف، نشأ (علم التفسير) الذي تكفل بتلك الغايات، ونشأت للتفسير أساليب ومذاهب، ودوّنت للمفسرين شروط وآداب وصار المفسرون طبقات، ولأهمية الدور الذي يمارسه (علم التفسير) صار هذا العلم أساساً لكافة العلوم وأهمها، وما من علمٍ إلاّ ويعوّل عليه»[١].

والتفسير غير التأويل، «أما التأويل فأصله من الأول وهو الرجوع، أي رجوع الآية الكريمة لما تحتمله من المعاني والأغراض، وقيل أيضاً أنه يراد منه العاقبة وما يؤول إليه الأمر، لأن تأويل القرآن هو ما يرجع إليه الكلام وما هو عاقبته سواء أكان ذلك ظاهراً أم خفياً لا يعرفه إلاَّ الراسخون في العلم»[٢].

وعليه، فإن علم التفسير قد نشأ وتطور ومرّ بمراحل عديدة حتى وصل إلى ما وصل إليه الآن، حيث أضحى علماً واسعاً ومتشعباً لا مجال لاستعراضه في طيات هذا البحث، واكتفينا بالإشارة إليه كتوطئة للدخول والتعرّف على المناهج التي سلكها المفسرون بشكلٍ عام ومختصر، وصولاً إلى دراسة المنهج التفسيري عند العلامة الطباطبائي.

---

(١) العطار، داوود، موجز علوم القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٣، ت. ١٩٩٥، ص١٩.

(٢) الأشقير، محمد علي، لمحات من تاريخ القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٢، ١٩٨٨م، ص٢٣٧.

درج الباحثون في علم التفسير على تقسيمه إلى قسمين[١]:

١ - التفسير بالمأثور.

٢ - التفسير بالرأي.

١ - **منهج التفسير بالمأثور**: وهو أول التفسير ظهوراً، ويشمل ما جاء في القرآن نفسه من تفسير الآيات بعضها بعضاً، وما نقل عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وما نقل كذلك عن الصحابة، وعن التابعين أيضاً.

وقد وقع خلاف فيما نقل عن التابعين، فالبعض يعدّه من قبيل المأثور، والبعض الآخر يعدّه من قبيل الرأي، إلا أن أكثر المفسرين ذهبوا إلى الأخذ بقول التابعين في التفسير لأن التابعين تلقوا أكثر تفسيراتهم عن الصحابة.

أما الإمامية فالمأثور عندهم ما جاء في القرآن الكريم من بيانٍ وتفصيل، وما نقل عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وأئمة أهل البيت عليهم السلام. كما ذكروا بأن تفسير القرآن لا يجوز إلاّ بالأثر الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وعن الأئمة عليهم السلام، الذين قولهم حجة كقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وذلك لما تواتر من وصية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فيهم: (إني تاركٌ فيكم، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض). وأما ما نقل عن الصحابة والتابعين فليس بحجّة في ذاته.

٢ - **منهج التفسير بالرأي**: يطلق الرأي في اللغة على الإعتقاد،

---

(١) اعتمدنا في هذا البحث على كتاب (الطباطبائي ومنهجه في تفسير الميزان) وهو من المصادر المذكورة وفيه شروحات ومطولات حول هذا الموضوع، إلا أننا اقتطفنا منه ما يخدم هدف بحثنا وبمقدار الحاجة.

والقياس، والإجتهاد، ويعتبر أصحاب القياس أصحاب الرأي، لأنهم يقولون برأيهم فيما لم يجدوا فيه حديثاً أو أثراً.

والمراد به هنا؛ تفسير القرآن بالإجتهاد، وقد نشأ التفسير بالرأي كمنهج في وقت متأخر عن نشأة التفسير الأثري.

وقد اختلف العلماء في التفسير بالرأي والإجتهاد، فمنهم من منعه ومنهم من أجازه، أما من أجازه فقد اعتمد على جملة من الأدلة التي لا مجال هنا لاستقصائها، إلا أن المانعين تعلقوا بما روي عن الرسول ﷺ: «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»، وإن هذا صريح في النهي عن استعمال الرأي في التفسير.

وقد حمل المجوزون حديث النبي ﷺ على وجوه عدّة، نافين أن يكون النهي في الحديث على إطلاقه، ومن هذه الوجوه: إن النهي واقع على من قال برأيه في نحو مشكل القرآن ومتشابهه، أو يحمل النهي على من يقول في القرآن بظاهر العربية دون أن يرجع إلى المأثور، وبالتالي فإن المفسر بالرأي الذي يستعين بالمأثور وأدوات التفسير الأخرى من اللغة العربية وعلومها، وعلوم القرآن، والتاريخ، والفقه وأصوله، وعلم العقائد، وغيرها... لا يمكن أن يكون مشمولاً بالنهي الوارد في الحديث.

**وعلى أساس ما تقدّم، قسِّم التفسر بالرأي إلى قسمين:**

أ - **التفسير بالرأي الجائز**: وهو الذي تراعى فيه الضوابط التي ذكروها شروطاً للمفسر، وألا تكون نتائج هذا التفسير مخالفة لحقائق الشريعة.

ب - **التفسير بالرأي المنهي عنه**: وهو الذي لا تراعى فيه تلك الضوابط، فتأتي نتائجه متناقضة مع كثيرٍ من حقائق الشريعة.

وقد أخذ التفسير بالرأي مناهج متعددة تلونت بثقافات المفسرين وعقائدهم، كما كان للعامل السياسي والمذهبي أثره فيه، ما أنتج جملة من المناهج سنستعرضها بشكلٍ موجز، **وعلى الشكل التالي**:

١ - **المنهج اللغوي**: أتجه أصحاب هذا المنهج إلى استخلاص معاني الآيات باستخدام اللغة، حيث كانوا يرون النص القرآني بالإضافة إلى كونه نصاً دينياً، فهو نص أدبي مُعجز، ومن ثم اتجهوا في فهمه اتجاهاً لغوياً بعيداً عن أمورٍ قد لا تعطيها الدلالة اللغوية، ولا يسعف على استنباطها من النص تركيبه الأدبي المعجز.

٢ - **المنهج الفلسفي**: حاول أصحاب هذا المنهج التوفيق بين الفلسفة والدين على أساس تأويل النصوص الدينية، وحملها على معان تتفق وما تقول به الفلسفة. وقد ظهر هذا المنهج بعد الفتوحات الإسلامية، وازدهار حركة الترجمة وتلاقح الثقافات.

٣ - **المنهج الصوفي**: ذهب المتصوّفة في تفسير القرآن إلى تأويل آياته بما يوافق أفكارهم وثقافتهم، وإشراقاتهم الروحية، وبذلوا أقصى ما في وسعهم حتى يوفّقوا بين نصوص القرآن الكريم وبين مبادئهم، وشيخ هذا المنهج (محي الدين ابن عربي، المتوفي عام ٦٣٨هـ).

٤ - **المنهج الباطني**: إتجه الباطنية في تفسير القرآن إلى باطنه ورفضوا الأخذ بظاهره، وقالوا: إن للقرآن ظاهراً وباطناً، والمراد من باطنه دون ظاهره المعلوم من اللغة، ونسبة الباطن إلى الظاهر كنسبة اللب إلى القشر، وتمسكوا بقوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾[1].

(١) سورة الحديد، الآية: ١٣.

٥ - **المنهج العقدي**: تندرج تحت التفسير العقلي النزعات العقدية في التفسير، فقد كان لظهور الفرق أثر كبير في تدرج التفسير العقلي، إذ اتجه رجال كل فرقة إلى إعمال عقولهم في تأويل النص القرآني، وتحكيم معتقداتهم فيه، بل واستخراج الأدلة منه على سلامة اتجاههم، وقد تصدّر المُعتزلة ساحة ذلك الصراع، وأخذوا يتأولون الآيات بما يناسب معتقداتهم الإعتزالية، كما جاء الأشاعرة كردٍّ فعل للحركة الإعتزالية وأخذوا يدعمون معتقداتهم بتأويل بعض النصوص القرآنية، كما دخلت الإمامية الصراع العقائدي فلم يتفقوا مع المعتزلة في جميع معتقداتهم، وكذلك مع الأشاعرة.

إلى ذلك كلّه، ظهرت فرق عدّة أخذت توظّف بعض الآيات القرآنية المتشابهة في إثبات معتقداتها وأفكارها، كالخوارج والجهمية والمرجئة وغيرهم.

٦ - **منهج التفسير الفقهي**: وهو ذلك المنهج الذي يعتمد على الكتاب والسنة في التعرف على الأحكام الفقهية، وقد عملوا رأيهم على ضوء القواعد الكلية للكتاب والسنة، ولكن ما لبث أن انتهى بهم الأمر إلى الإختلاف نتيجة قيام المذاهب الفقهية، وتعصب أهل كل مذهب لأفكاره، وقد تنوّع التفسير الفقهي تبعاً لتنوع الفرق الإسلامية فلأهل السنة بمذاهبهم الأربعة عدّة تفاسير، وكذلك بالنسبة للشيعة، وللفرق الظاهرية والخوارج[١].

وقد برزت بعد النهضة الحديثة، أي منذ بدايات القرن الماضي، جملة من المناهج التفسيرية التي أخذت طابعاً متأثراً ومتحرّكاً مع طبيعة

(١) راجع أيضاً: معرفة، محمد هادي، التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب، الجامعة الرضويّة للعلوم الإسلاميّة، مشهد، ط٣، ت١٤٢٨هـ، ج٢، ص٨٠٥ - ٨١٨.

المرحلة التي كان يمرّ بها الفكر الإسلامي، الذي كان يتعرض إلى حالة تشويش ثقافي نتيجة تغلغل الفكر الأجنبي والغربي الذي كان يجتاح ويستهدف أعماق المجتمع الإسلامي.

وفي هذا الجو الثقافي، برزت حاجة ملحّة إلى استلهام واستنباط الأحكام والأفكار التي تحاكي متطلبات العصر المستجدة، وذلك بهدف التصدي لكل محاولات الغزو الثقافي في كافة الميادين، وقد ساهمت هذه المرحلة في إنتاج مجموعة من المناهج كالمنهج الإجتماعي، والمنهج التاريخي، والمنهج الإقتصادي، والمنهج السياسي، والمنهج العلمي، والمنهج الأدبي، والمنهج الموضوعي.

كما ساهمت في إثراء المعرفة الإنسانية، وإغناء الساحة الإسلامية بالكثير من الأفكار والمفاهيم التي عملت على بعث روح نهضة حقيقية في الواقع الإسلامي الحديث.

على ضوء ما تقدّم، يبرز سؤال أساسي والذي هو موضوع بحثنا: أين يمكن وضع واعتبار منهج العلامة الطباطبائي في التفسير؟ وبالتالي، كيف تبلور هذا المنهج؟ وهل حمل شيئاً جديداً؟

ينقل الطهراني عن أستاذه العلامة الطباطبائي قوله: «إن هذا الأسلوب التفسيري الذي لدينا هو من المرحوم علي القاضي»[١]، وكان هذا التفسير يقوم على أساس تفسير القرآن بالقرآن، أي استنباط مفهوم ومغزى آية القرآن من القرآن نفسه، وبعبارةٍ أخرى هو التفسير بالمأثور، أي النوع الأول من التفسير الذي تقدّم ذكره.

(١) الشمس الساطعة، م.م، ص٥٨. (والميرزا علي القاضي أستاذ العلامة الطباطبائي في العرفان).

وأكّد هذا المعنى الأوسي في كتابه، حيث قال: «. . .إستعان المفسِّر بآيات الكتاب العزيز في تفسير بعضها للبعض الآخر، وهي قاعدته الأساس في هذا التفسير. .»[١].

في حين عدّه العلامة السبحاني من المؤسسين لهذا النمط في التفسير، أي تفسير القرآن بالقرآن، حيث قال: «في البداية يجب اعتباره من المؤسسين لأسلوبٍ خاص في التفسير. . وهو تفسير القرآن بالقرآن، ورفع إبهام الآية بواسطة آية أخرى»[٢]. إن كلام السبحاني وخاصة في القسم الأول منه غير دقيق، وذلك على اعتبار أن التفسير بالمأثور هو أول أنواع التفاسير كما تقدّم شرحه في بداية البحث وبالتالي لا يمكن اعتبار العلامة الطباطبائي من المؤسسين لهذا النوع من التفسير، ولكن إذا أردنا حمل كلام السبحاني على الأحسن، فيمكننا القول: أنه ربما أراد بكلامه هذا الإشارة إلى أن العلامة الطباطبائي في تفسيره للقرآن مع ما حوى من أبحاث جانبية غزيرة، وبالشكل الذي جاءت به يعتبر الأول أو المؤسس في هذا المجال.

**وعلى كل حال، فالعلامة الطباطبائي قام بتفسير القرآن بالمأثور مستعيناً بقاعدتين أساسيتين[٣]:**

١ - تفسير القرآن بالقرآن، أي أن الآيات حين يفسر بعضها بعضاً يكون ذلك من قبيل القرائن المنفصلة المساعدة على فهم النص القرآني.

٢ - السياق، أي مبدأ السياق في التفسير وأثره في تجلية معاني

(١) الطباطبائي ومنهجه في تفسير الميزان، م.م، ص١١٧.
(٢) مقالة شمولية العلامة الطباطبائي، م.م، ص٢٩٩.
(٣) لمزيد من التوسع حول هذا الموضوع راجع الطباطبائي ومنهجه في تفسير الميزان، وهو من المصادر المذكورة والمعتمدة لدينا.

الآيات بحيث يكون السياق من القرائن الحالية في فهم النص القرآني، وبالتالي هو من التفسير بالمأثور.

وقد يستعين بالروايات الصحيحة والثابتة عن النبي ﷺ، في سبيل الكشف عن المتشابه به من النص القرآني.

**ولنستعرض بعض الأمثلة على ذلك:**

أ - لجهة تفسير القرآن بالقرآن: ففي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾[١] في هذه الآية أراد العلامة الطباطبائي أن يبيّن معنى (لستم على شيء) لما فيها من غموض، ولاحتمالها عدة معانٍ تحتاج إلى نظر وتدبر، فاستعان بالآية نفسها وبآياتٍ أخرى على أن معنى (لستم على شيء) هو كناية عن عدم اعتماد أهل الكتاب على شيء تثبت عليه أقدامهم فيقدرون بذلك على إقامة التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم تلويحاً إلى أن دين الله وحكمه، لهما من الثقل ما لا يتيسر حمله للإنسان حتى يعتمد على أساس ثابت، ولا يمكن إقامته بمجرد هوى من نفسه، كما يشير تعالى إلى ذلك في القرآن الكريم بقوله: «**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً**»[٢]، وقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣]، وقوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾[٤].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٨.
(٢) سورة المزمل، الآية: ٥.
(٣) سورة الحشر، الآية: ٢١.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.